E. الفرق السياسية ـ الدينية في الاسلام

I. الفرق الدينية الأولى في الاسلام

كما كان للأمبراطورية المسيحية البيزنطية، كما رأينا، عقيدتها اللاهوتية الرسمية او المستقيمة الرأي ومذاهبها المنشقة ونزاعاتها الدينية، كان للأمبراطورية العربية ـ الاسلامية التي خلفتها في الشرق مثل ذلك أيضاً. فالمجادلات المسيحية حول طبيعة يسوع المسيح والتي أدت الى ولادة العديد من المذاهب الدينية: كالأرثوذكس أو الملكيين والآريوسيين والنساطرة والقائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالمشيئة الواحدة الخ... حلت محلها بعد ظهور الاسلام مجادلات مماثلة لا سيما حول طبيعة علي، صهر الرسولﷺ، ستؤدي الى نشوء عدد كبير من الفرق الاسلامية في العالم الشرقي ومنها: السُنّة، الخوارج، الشيعة، الإسماعيلية، الفاطمية، الخ...

وكانت الأرثوذكسية والهرطقات الدينية تمثل في الاسلام ما كانت تمثله في الأمبراطورية المسيحية والبيزنطية من معارضات ومصالح وأحزاب سياسية وتطلعات استقلالية وميول انفصالية. وكما تبنت سورية ومصر المسيحيتان أيام حكم البيزنطيين عقيدة الطبيعة الواحدة أو اليعقوبية كرد فعل على بيزنطية وأرثوذكسيتها، اعتمد مسلمو العراق العقائد الخوارجية (الخوارج) والشيعية معارضةً منهم لهيمنة الخلافة السنية في دمشق. كما ستلحق مصر المسلمة لاحقاً بركب الشيعة الفاطمية كرد فعل منها ضد الخلافة السنية في بغداد.

١ ـ السنة، الخوارج، الشيعة

إن وقعة صفين (٦٥٨) ونتيجة التحكيم الذي أعطى الخلافة الى معاوية أديا في الإسلام الى ولادة مذهبين كبيرين منشقين ممثلين بحزبين سياسيين دينيين كبيرين: الخوارج والشيعة. إن هذين المذهبين أو الحزبين، اللذين يجسدان رد فعل العراقيين المتحولين الى الإسلام ضد هيمنة عرب الحجاز

وسورية، سيكونان ألد أعداء الخلافة السنية في دمشق.

وهكذا ومنذ وصول الأمويين الى الحكم (٦٦١) فإن ثلاث مجموعات سياسية ـ دينية تنطبق على ثلاثة ميول رئيسية وتظهر باستمرار خلال تاريخ العالم الإسلامي، ستستخدم كقاعدة للتطلعات القومية والميول الانفصالية الاقليمية وتلك المجموعات هي: السُنّة والخوارج والشيعة.

أ ـ السنة، عقيدة مستقيمة الرأي ورسمية

لقد رأينا أن السنة: تعني «ممارسة العقيدة الاسلامية المستقيمة ونظرياتها الاسلامية المستقيمة القائمة على أعمال محمدﷺ وحركاته وأفعاله وأقواله» والتي تشكل مع القرآن الكريم أساساً للعقيدة وللشعائر الاسلامية. ومن هنا تسمية «أهل السنة» أو السنيين وهي تعني المسلمين المستقيمي الرأي.

إن العقيدة السنية هي التي اعتمدها خلفاء المدينة ودمشق وبغداد وأعلنت كدين رسمي لأمبراطورية كل منها. وأما في الأمبراطورية المسيحية والبيزنطية فإن الايمان المستقيم الرأي كان ممثلاً بالعقيدة الملكية (الأمبراطورية) والمعروفة أيضاً بالخلقيدونية والمفروضة كدين رسمي.

ب ـ الخوارجية أو طائفة الخوارج والبدع المتفرعة منها

إن الخوارج هي كلمة عربية مشتقة من فعل خرج، والخوارج، كما قلنا، من أنصار علي السابقين الذين تخلوا عن قائدهم عندما قبل هذا الأخير بعد وقعة صفين بالرضوخ الى التحكيم. وقد كان هؤلاء المتصلبون يريدون إيكال الأمر الى الله وحده، وهو سيد المعارك، لإصدار القرار الذي يحسم النزاع بين معاوية وعلي. وقد عمل انتصار معاوية على شد إزر هؤلاء المنشقين في موقفهم العدواني والهجومي.

وإذا قارناهم بالسنة والشيعة فإن هؤلاء الخوارج يبدون متزمتين على أنهم أطهار الاسلام. وما مذهب الوهابيين المعاصر في نجد (المملكة العربية السعودية) وفي العديد من النقاط، إلا إحياء لطائفة هؤلاء الخوارج.

فبالنسبة الى الخوارج فإن القرآن الكريم يحتوي على كل معرفة ويجب تفسيره بمضمونه الحرفي، والايمان والصلاة لا يكفيان ما لم يقترنا بالأعمال الصالحة ونقاوة الضمير. فالمسلم الذي يرتكب خطيئة مميتة يفقد صفته كمؤمن ويجب إقصاؤه من الطائفة وإن الترف مذموم كما تحرم الموسيقى والميسر وتعاطي

المسكرات. وتسلم هذه الطائفة بالقدرية المطلقة.

على الصعيد السياسي فإن الخوارج ليسوا أقل أصولية مما هم عليه على الصعيد الديني. فعلى عكس الشيعة المتمسكين بمبدأ الوراثة الملكية والذين لا يعترفون بخليفة إلا من سلالة النبي فإن الخوارج الذين لا يقبلون إلا بخليفة منتخب، يعتبرون أن كل مسلم بوسعه ممارسة ذلك المنصب الأعلى شرط أن يكون صالحاً ومتقيداً بالشريعة.وفي المقابل فإن كل خليفة يمكن خلعه ما إن يثبت عدم استحقاقه كعلي. وبعدما سحقهم علي إثر ثورتهم عليه (٦٥٨) شكل الخوارج في جنوب بغداد نواة صلبة. وقد يكون أحد أنصارهم قد قام باغتيال علي في مسجد الكوفة (٦٦٠).وإن التمردات التي نشبت بتحريض منهم في الكوفة والبصرة أيام حكم معاوية تمّ قمعها بقوة السلاح.

إن حركة الخوارج المعادية للأمويين، والتي كانت تقلق خلفاء دمشق، هي بوجه خاص احتجاج مسلمي العراق على عرب الحجاز وسورية. فالعراق تلك المقاطعة السابقة من الأمبراطورية الساسانية والمركز الهام للثقافة المزدية أو اليعقوبية الدين والآرامية اللغة، كان ذا سمعة سيئة في الأوساط السنية. فسكانه كانوا من الزنادقة، وربما كانوا كلهم من الزرادشتيين والمانيشيين ومن بينهم بعض الخوارج. فالشعور القومي القديم كان يعبر عن عدائه للخلافة تحت أشكال مختلفة من البدع. . . ولا بد من الاشارة هنا الى أنه وفي الجزيرة العربية هناك منطقة نسطورية أخرى هي تلك التي تضم اليمن وحضرموت وعمان تحولت الى الخوارجية منذ مطلع حكم سلالة الأمويين»[1]. وفضلاً عن تلك البلدان المتفرقة وبرغم الهزائم والاضطهادات فإن الحركة الخوارجية اكتسبت أنصارًا لها في بلاد ما بين النهرين وفارس وشمال أفريقيا. ففي جميع تلك البلدان كانت المعارضة العرقية والسياسية، ترتدي مظهر الانشقاق الديني.

فكلما كانت طائفة الخوارج تمتد في المدى كانت تنقسم الى فرق ثانوية منها الأزارقة وقد أسسوا دولة في جنوب فارس وأبيدوا حوالي العام ٧٠٠. والسفريت الذين انتشروا في جميع انحاء العالم الإسلامي، وبخاصة في المغرب، نجحوا في تحويل قبائل البربر الى الإسلام في شمال أفريقيا. والعباديون، وقد كانوا ناشطين في جزيرة العرب حيث ثاروا ضد آخر خليفة

1 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 410.

أموي، هزموا وطردوا من المدن المقدسة واستقروا في عمان ثم تغلغلوا في بلاد زنزيبار وشمال أفريقيا حيث تنافسوا مع إخوانهم السفريت. إن العباديين توصلوا في النهاية الى استيعاب هؤلاء السفريت وحولوا البربر المعتنقين للاسلام الى اعتماد عقيدتهم الدينية وحرضوهم على الثورة على الدين المستقيم في دمشق.

وإن العباديين الذين خمدت قوتهم الهجومية في الشرق في وسط القرن الثامن سيظلون في أفريقيا الشمالية وعمان (جزيرة العرب) والزنزيبار. وبعد وصول الفاطميين الى السلطة في المغرب (حوالي العام ٩٠٠) فإن عباديي أفريقيا وقد فرّقتهم الانشقاقات الدينية والسياسية التجأوا الى الصحراء. وما تزال عقيدتهم سائدة حتى اليوم في جنوب تونس وفي الجزائر وعمان (جزيرة العرب) وزنزيبار. وإن إمام مسقط هو عبادي.

«وباختصار فالخوارجية لم تلقَ نجاحاً لدى شعوب الشرق. فعامة الناس فيه لا تتحمس لعقيدة، ما لم تتجسد هذه العقيدة في شخص أو أسرة أو صيغة ساحرة... لذا لم تنجح الخوارجية في كسب أنصار لها إلاّ في مسقط وزنزيبار والمغرب حيث اتبعتها مجموعات بأسرها واتخذت شكل دين قومي»[2].

ج - فرقة المرجئين (المرجئة)

وخلافًا للخوارج الذين يعلنون أن كل مسلم ارتكب خطيئة مميتة هو كافر ويعتبرون الايمان غير كاف ما لم يكن مقروناً بالأعمال الصالحة فإن المرجئين (من أرجأ أي أجّل) يعتبرون الإسلام لا فكاك منه بعد إشهاره. «وكانوا يعلمون أن السلوك العملي هو ثانوي وأن الايمان وحده هو المهم وأن المؤمن حتى وإن كان سيء السلوك هو أفضل من غير المؤمن الحسن السلوك. وباختصار فإن المرجئة كانوا يمتنعون عن الحكم على الناس تاركين ذلك الى الله (ومن هنا جاءت تسميتهم) وهذا يعني إضفاء الشرعية على الأمويين وهي انتهازية لم تكن تناسب الخوارج ولا الشيعة»[3].

2 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 413.

3 Massé, *op. cit.*, p. 149.

د ـ الشيعة وفرقها

إن الشيعة[4] وفرقها المتعددة تحتل في تاريخ العالم الاسلامي مركزاً أهم من مركز الخوارج.

فعند موت الخليفة عثمان (٦٥٦)، نُودي بعلي، صهر الرسولﷺ في المدينة كخلف له. وبعد وقعة أو يوم الجمل وإقامة علي في الكوفة تمت مبايعته أيضاً كخليفة في العراق. ولم تعد جزيرة العرب مركزاً للخلافة واستعادت بلاد ما بين النهرين مركزها الأمبراطوري القديم.

لكن سورية «التي أصبحت مستعدة للإنفصال عن الخلافة رفضت تحت حكم معاوية الاعتراف بعلي كخليفة... فوقع الانشقاق يومها في صف العالم الاسلامي. فالعراق وسورية بعثا نزاعهما القديم فلم يعد طرفا النزاع بيزنطية المسيحية ضد فارس الزرادشتية بل «بين المسلمين أنفسهم»[5] ومن هذا النزاع ولدت الشيعة.

وبعد اغتيال علي (٦٦١) ومقتل ولده البكر الحسن الذي توفي بعده بثماني سنوات مسموماً بيد زوجته، قتل ولد علي الثاني الحسين الذي قاد تمرداً في الكوفة وذبح أنصاره (٦٨٠). وما يزال ضريح علي الى اليوم في كربلاء محجة يزوره الشيعة ويعتبرون علياً وولديه الحسن والحسين قديسين وشهداء.

«إن مقتل علي المأساوي ناهيك باستشهاد ولديه الحسن والحسين، يقول رينان، هو بالنسبة الى الشيعة مثال لما تحمله آلام السيد المسيح واستشهاده من معان بالنسبة الى المسيحيين. فشهر محرم من كل عام المكرس لذكرى تلك الأحداث الدموية هو مثل أسبوع الآلام مليء بالصور الحزينة ومشاهد الحداد. إن طبع فارس الروحاني عرف كيف يعطي الإسلام ما كان ينقصه أي مثالاً حنوناً ومعذباً وأسباباً تدفع الى البكاء وشكوى دامعة وآلاماً. وكل هذا حاجة مطلقة لكل دين».

إن علياً والحسن والحسين والمنحدرين التسعة المباشرين من هذا الأخير، هم بالنسبة الى الشيعة الأئمة أو القادة الروحيون الإثنا عشر والخلفاء

(٤) ان كلمة شيعة التي أطلقت على أنصار علي وخلفائه، مشتقة من تعبير «شيعة علي» الذي يعني «حزب علي».

5 B. Thomas, *op. cit.*, p. 71.

الشرعيون الوحيدون لأنهم من نسل النبيﷺ. «وإن الإمام الثاني عشر من تلك السلالة الرسولية الشيعية»، والذي اختفى بطريقة غامضة في مغارة بسامراء (حوالي العام ٩٠٠) قد يكون حياً الى اليوم وغير منظور. وسوف يظهر ذات يوم تحت اسم المهدي ليخلص الأرض من مسيح دجال سيملأ العالم فساداً وإثماً قبل نهاية الأزمنة .

إن الحركة الشيعية، وقد حاربتها بشدة خلافة دمشق السنية، نشرت سراً عقيدتها، وعلى غرار الخوارجية، فإنها أدت الى ولادة فرق عديدة. فهناك الشيعة التقليدية أو المعتدلة (التي تضم معظم الشيعة بحد ذاتهم وتشكل منذ القرن السادس عشر الدين الرسمي لدولة فارس المعاصرة). كما أن هناك الفرق الشيعية المتطرفة. وإن العقائد الشيعية المتفرقة التي نشأت إثر موت علي هي «غريبة عن الفكر العربي والاسلام الأولي، في حين أن الخوارجية هي جهد لم يحالفه الحظ كثيراً في إبقاء هذا الاسلام على استقامته وتماميته»[6].

٢ ـ الشيعة المعتدلة

أ ـ الشيعة التقليدية

إن أتباع الشيعة التقليدية يعترفون بسنة النبي، أسوة بالسنيين، لكنهم يختلفون عنهم بواقع أنهم «يبنون تلك السنّة قطعاً على سلطة أعضاء أسرة النبيﷺ في حين أن السنيين يقرون أيضاً بشهادة صحابة محمدﷺ». وفضلاً عن خلافهم حول أساس العقيدة الاسلامية فإن الشيعة والسنة يختلفون أيضاً حول مسائل الشعائر والطقوس.

فبالنسبة الى الشيعة فإن الخلافة الشرعية وبناء على عملية انتقال روحية هي حق حصري بسليلة النبي. وعلى هذا الأساس فإن علياً صهر النبي محمدﷺ ونظراً لانعدام الورثة الذكور للنبي، فيجب أن يلي عمه كرئيس للطائفة الاسلامية أي كخليفة أو إمام. ونتيجة لهذا فإن الخلفاء الثلاثة الأول أبا بكر وعمراً وعثماناً هم خلفاء غير شرعيين.

إن الشيعة، التي هي أكثر تساهلاً من السنة حول بعض النقاط، تبدو أكثر تشدداً حول نقاطٍ أخرى. وعلى هذا فإن الشيعة يفسرون حرفياً السورة القرآنية التي تعتبر الوثنيين نجسين، لذا يمتنع الأتقياء منهم عن ملامسة أي شخص غير مسلم.

6 Gaudefroy-Demombynes, *op, cit.*, p. 414.

إن عمليات القمع التي كان الشيعة دائماً عرضة لها أعطت مذاهبهم شكل الجمعية السرية. «لذا فإن الطائفة الشيعية كانت لها «حياة سرية» حقيقية أدت الى نشوء ميل لدى أتباعها لكتم معتقدهم والامتناع عن أداء فروض العبادة في حال شكل ذلك خطراً عليهم... وهذا الميل الى الكتمان والذي له آثار في القرآن الكريم: ٣، ٢٧ - ١٦، ١٠٨... مورس من قبل الشيعة الى حد أنه غدا إحدى العلامات المميزة لدى فرقهم المتطرفة. وتجدر الاشارة الى أن هذا يعود الى كبت ناجم عن الظروف وليس عن اختيار حر، والمقصود منه قبل كل شيء منع أعمال الانتقام وسفك الدماء»[7].

وإن إخفاق محاولات الشيعة قد غذى لديهم الآمال بانتظار مهدي آخر العالم. فتعليمهم الديني ينص على أن كل مظالم الأرض ستنتهي عندما يقوم الإمام الأخير الذي ما يزال متخفياً بالظهور على الأرض بصفة المهدي.

ونحن نعلم أن فكرة المهدي محيي العدالة والذي سيظهر في آخر الأزمنة هي معتقد شرقي قديم اعتمده الاسلام القويم الرأي بناء على أحاديث عديدة منسوبة الى النبي محمدﷺ، وأن فكرة المهدي التي استأثرت بها الشيعة لصالح علي وذريته، هي لدى غلاة الشيعة تحول علياً الى إله وتجعل من المهدي أو المخلص إماماً متخفياً ومنتظراً، هو من نسل علي وزوجته فاطمة.

«إن علياً وسلالته الإثني عشر المباشرين في نظر الشيعة، هم الخلفاء أو بالأصح الأئمة الحقيقيون نظراً الى أن فكرة الإمامة اتخذت عند الشيعة مدى وأهمية خاصين: ففي حين أن الإمام عند السنة القويمي الرأي هو القائد الروحي والزمني المعين بالانتخاب أو بالاختيار البشري، فإن الإمام الشيعي (وارث رسالة النبيﷺ) يحصل على شرعية منصبه بموجب اختيار إلهي وبحسب أحد الأحاديث الشيعية قد تم بواسطة محمدﷺ. وهو إمام جوهرياً بفعل فيض خفي ينتقل من إمام الى آخر منذ آدم. وباختصار فإن الإمام السني هو رئيس أو قائد في حين أن الإمام الشيعي هو حبر»[8].

ومن جهة أخرى «فإن الإخفاق السياسي الذي لاقته الشيعة تسبب في نشأة أحد عناصرها المكونة وهي: فكرة الآلام والفداء... فالإمام عليه حتماً وفي نهاية المطاف أن يموت شهيداً (وفي الواقع فإن كل أئمة الشيعة على حد قول المؤرخين ماتوا قتلاً). وبما أن لا بد من وجود إمام للعالم في كل حين فإن

7 Massé, *op. cit.*, p. 153.
8 Massé, *op. cit.*, p. 151.

آخر الأئمة لم يمت بل هو غائب وحسب وسيعود يوماً. وبانتظار انتهاء غيبته فإن الطائفة الشيعية تعتبر نفسها وكأنها تحكم من قبل ذلك الإمام غير المنظور. . . ويتفق غالبية الشيعة حول رجعته ولكنهم يختلفون حول عدد الأئمة وحول شخصية آخرهم «الإمام المتخفي»[9]. إن سلالة علي المباشرة تتوقف عند الإمام الثاني عشر وهو المهدي سيد الزمان الذي اختفى بطريقة غامضة العام ٩٠٠. وهو ما يزال حياً ومنزوياً في مكان سري منتظراً الساعة التي سيظهر فيها من جديد.

وانطلاقاً من مبدأ الوراثة النبوية فإن الأئمة الإثني عشر من سلالة علي هم معصومون عن الخطأ. لذا وخلافاً للسنة الذين يرسون تفسيرهم للشريعة، على إجماع الطائفة فإن الشيعة يستبعدون العقل البشري معتبرين إياه عاجزاً في موضوع العقيدة الدينية وهم لا يقرون بهذه الصلاحية إلا للعلماء أو المجتهدين الذين هم ألسنة حال الإمام المتخفي.

إن عملية انتقال الإمامة بطريقة سرية ووراثية هي مفهوم غريب عن التقليد العربي والإسلامي. فالحركة الشيعية، أكثر من الخوارجية، كانت في بدايتها حركة عراقية انفصالية أو شكلاً دينياً من أشكال المعارضة العرقية والسياسية لدى أهالي بلاد ما بين النهرين القدماء الذين، برغم اعتناقهم الإسلام، حافظوا على ميلهم الوراثي الى تنوع العقائد الدينية فضلاً عن اعتيادهم منذ القدم على الاهتمام بالمجادلات والنزاعات العقائدية الدينية. فوسط هذه البيئة الروحية الخاصة ولدت أسطورة علي وعقيدة الخلافة الشرعية في أسرة صهر النبيﷺ. وهذه العقيدة سوف تتطور خلال القرن الثامن في كنف سكان إيران المتحولين الى الإسلام «والمحافظين على تقاليد السلالات المقدسة».

«وينبغي البحث عن سر نجاح العقائد الشيعية في استمرار التراث البابلي حيث احتفظت السلالة الساسانية بتقاليد الملكية المقدسة، شبه الإلهية، والذي أدخلته الى المجتمع الإسلامي طبقة الموالي الجدد المؤلفة أصلاً وبشكل شبه كلي من الأرقاء الفرس. . .

في القرن الثامن وكذلك في القرون اللاحقة فإن شعوب الشرق الأدنى، وبخاصة منهم الإيرانيين، ظل يشغلها هاجس انتظار اضطراب اجتماعي ما

9 Massé, *op. cit.*, p. 153, 154.

يقوم خلالـه شخص ترسله العنـاية الإلهيـة وهو شبـه إلهي، بهدايـة البشريـة الى السعادة العامة والنهائية. ومن أجل التمهيد لمجيئه ودعم رسالته فـإن المؤمنين بـه تجمعوا في أخوية سرية كان تنظيمها مختصراً في البداية إلا أنه توضح فيما بعد لدى الفاطميين والقرامطة والحشاشين، في تنظيم مشاد ببراعة ويحتوي على مراتب عديدة من المطلعين على أسرار العقيدة. ويصادف أن يختلط الظهور العلني لهذه المجموعات من الأشخاص المطلعين بشكل دائم أو عابر مع نشر عقيدة علي أو وصول أحد الفاطميين الى الحكم... إن هدفهم يظل هو نفسه هدف الحركة المزدكية... والمتلخص باشتراكية الأموال والنساء والفوضى السعيدة في ظل حكم مطلق لا شكل له هو حكم كائن مختار من الله...

ولا ريب بأن موت علي المأساوي، وبخاصة موت ولـده الحسين وأسـرته، هو الذي أطلق الأسطورة وأحاط شخصية صهر الرسول بذلك البـريق الرائـع. فـورث عـلى أي حـال المعتقـدات المتفـرقـة المتنقلة في الشـرق حـول الحلول أي التجسد الإلهي والتناسـخ أي انتقال هـذه الروح الإلهيـة الى نفس بشريـة أخرى والـرجعة أو عـودة الإمام الأخـير المتجسد أخيـراً. فإن الفـرق العلويـة سيكـون شغلها الشاغل ترقب ظهور سيد الزمان أي المهـدي الذي يتمتـع عندهـا بأهميـة خاصة. كما أن بعض تلك الفرق هو على استعداد لتقبل العقائد المتـطرفة حـول التجلي الإلهي»[10].

إن الحركة الشيعية بأشكالها المختلفـة، وقد أثـارتها نـزعات إقليميـة كانت تـدفع الشعـوب الى الانفصال عن سـوريـة الأمـويـة، ظهـرت بقـوة في العـراق وإيران وجزيرة العرب، في المدن المقدسة ولاحقاً في شمال أفريقيـا ومصر. وأمـا البـدو المنشغلون دوماً بنـزاعـاتهم القبليـة، فكـانـوا لامبـالـين بتلك المنـافسـات السياسية ـ الدينية. وأما بالنسبة الى سوريـة الأمويـة التي كانت الحـركة الشيعيـة موجهة ضد سيادتها بشكل خـاص، فقد ظلت مـركزاً للسـنـة وظلت تعتبر عليـاً مغتصباً للسلطة.

إن طابع المعارضة الشيعيـة ضد الهيمنـة العربيـة ـ السوريـة لخلفاء دمشق السنة هو طابع قومي أكثر منه ديني وهو مـا يظهـر بوضـوح من واقع أنـه عندمـا نجـح العباسيـون، يدعمهم الشيعـة العراقيـون ـ الإيـرانيـون في هـدم خـلافـة

10 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 415, 419, 421.

دمشق وتأسيس خلافة سنية في بغداد، فإن شيعة العراق وإيران الذين كانوا على رأس تلك الخلافة المابينهرية لن يكونوا منزعجين أبداً من عقيدتها السنية.

ب ـ الزيدية

وخلافاً للشيعة التقليدية أو الإمامية والتي تعتبر رجعة الإمام المتخفي (الثاني عشر) من أركان عقيدتها، فإن الزيدية التي تتوقف عند الإمام الخامس من هؤلاء الأئمة، لم تعد تنتظر عودة الإمام المتخفي أو المهدي.

إن أئمة الزيدية المنحدرين من الإمام الشيعي الخامس، وهو زيد حفيد الحسين، يمثلون الشيعة الأكثر اعتدالاً وهي تلك التي لا تبتعد إلا قليلاً عن السنة القويمة الرأي. وهم لا يعترفون بالزواج الموقت وينكرون الحلول الإلهي في الإمام الذي يتمتع فقط في نظرهم بتوجيه الله له. ومنذ وفاة زيد، الذي قتله جنود الأمويين العام ٧٤٠ بينما كان يطالب بحقوق العلويين، فإن الإمامة الزيدية بات عليها أن تكون اختيارية لا وراثية.

وفي العام ٨٦٢ تم تأسيس دولة زيدية صغيرة في طبرستان جنوب بحر قزوين وقد دمرها الأمراء الأتراك في البلاط العباسي العام ٩٢٨. كما تم تأسيس إمامة زيدية أخرى العام ٨٦٠ في اليمن وبقيت قائمة رغم كل الغزوات وهي ما تزال تلعب الى اليوم دوراً في الحياة السياسية في جزيرة العرب الحالية.

II الاسماعيلية والفرق العقلانية والصوفية

في حين أن السنة والخوارجية والشيعة التقليدية أو المعتدلة، والتي تكلمنا عنها آنفاً ولدت إثر إخفاق علي في وقعة صفين (٦٥٨) وتطورت بخاصة بعد مقتل علي المأساوي (٦٦١) وولديه الحسن والحسين، فإن الشيعة المغالية الممثلة بالاسماعيلية والفرق المتفرعة منها ظهرت بعدها بحوالي قرن (حوالي ٧٦٢) أي في مطلع حكم السلالة السنية لخلفاء بغداد العباسيين. وأما الفرق العقلانية والصوفية، والتي كانت افكارها موضع مناقشة من قبل علماء الدين المسلمين منذ مرحلة خلفاء دمشق الأمويين، فإنها لم تتطور إلا في أيام أوائل الخلفاء العباسيين.

١ ـ الاسماعيلية وفرقها

وفضلاً عن الزيدية، وهي فرقة معتدلة، فإن الشيعة ولدت فرقة مغالية هي الاسماعيلية وهذه بدورها تفرعت الى فرق سياسية ـ دينية عديدة كان من أهمها القرامطة والفاطميون والدروز والنصيريون والحشاشون، الخ. . . «بالنسبة الى مؤرخي الاسلام التقليديين فأتباع تلك الفرق هم غلاة الشيعة وهم يستبعدونهم من الشيعة التي يسمونها بالقويمة الرأي وهي التي تشكل اليوم دين إيران الرسمي»[11].

إن الفرق الإسماعيلية وتفرعاتها، وهي متولدة من الشيعة التقليدية او المعتدلة، غالباً ما حطمت بنشاطاتها وحدة الامبراطورية العربية الاسلامية السياسية والدينية وأدت في النهاية الى إزالة هيمنة عرب الجزيرة العربية لصالح السكان الأصليين المعتنقين الإسلام .

11 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 421, 422.

«وهكذا فالشيعة، وقد كانت في بداية ظهورها حزباً سلالياً فقط يحارب تحت شعاره المسلمون المعتنقون حديثاً الإسلام سيطرة العرب، استخدمت في كثير من الأحيان كغطاء لأصحاب المطامع الذين لا يردعهم رادع من ضمير لتحقيق اهدافهم الأنانية الصرف والمعادية للدولة»[12].

أ ـ الإسماعيلية

وفي حين أن الشيعة التقليديين (إماميون أو إثنا عشريون) يعتقدون بخلافة الإثني عشر إماما علوياً والذين اخرهم الإمام الثاني عشر، وقد تخفى، غير انه سيظهر من جديد في آخر الأزمنة، وفي حين أن الزيدية، وهم منشقون شيعة معتدلون يتوقفون عند الإمام الخامس من هؤلاء الأئمة، ولم يعودوا ينتظرون عودة المهدي، فإن الاسماعيليين، وهم منشقون متطرفون (سباعيون) فإن سلسلة الأئمة عندهم تتوقف عند الإمام السابع، وأما الإمام المتخفي والمنتظر فقد ظهر. ومن جهة اخرى وإذا كان الإمام المنتظر بالنسبة الى الشيعة التقليدية هو مجرد حامل لجوهر مضيء بسيط، وبالنسبة الى الزيدية، الإمام الذي يتمتع فقط بالتوجيه الإلهي، الا أنه بالنسبة الى الإسماعيليين وفرقهم المنوعة، فإن الحلول الإلهي في هذا الإمام مطلق الى حدّ أن هذا الإمام يتحوّل في النهاية الى إله.

إسماعيل. ـ إبن الإمام الشيعي السادس (جعفر الصديق)، وبرغم انه توفي قبل والده (٧٦٢) فقد غدا في نظر أنصاره سابع الأئمة وآخرهم او المهدي. إن أولئك الأنصار الذين حملوا إسمه (الإسماعيليين) سوف يعلقون عليه آمالهم.

«إن الاسماعيلية تقيم بين الانسان والألوهة (معتبرة كلاً منهما درجة) خمس درجات اخرى مكونة من المبادىء الأولية وهي: العقل الكوني والنفس الكونية والمادة الأولى، والمدى (الفضاء) والزمن (مما يجعلها جميعاً سبع درجات). والحال أن العقل الكوني عندها تجسد تباعاً في سبعة أنبياء هم: آدم ونوح وابراهيم وموسى ويسوع والنبي محمدﷺ وأخيراً بمحمد ابن اسماعيل الإمام السابع. وهكذا يتضح لنا الغور الكبير الذي يفصل بين استقامة الرأي والإسماعيلية (ناهيك بالحديث عن التفاسير الرمزية للقرآن الكريم والاعتقاد

12 Brockelmann, *op. cit.*, p. 155.

بالتناسخ). . . فالاسماعيلية تلغي رسالة محمدﷺ لصالح نبي جديد هو الإمام السابع»[13].

«ولم تكن المصادفة وحدها هي التي أعطت هولاء «السباعيين» أساس عقيدتهم ولكن وربما الى درجة اكبر الطابع المقدس الذي يحمله الرقم ٧ وهو طابع معترف به في كل مكان وزمان في الشرق. وبفعل الفكروية (الإيديولوجية) الايرانية حول النعمة الالهية والنظريات الغنوصية الناجمة عن العقائد المغلقة (مذهب العرفان القائل بأن المادة شر والخلاص يتم بالمعرفة الروحية أي أنها تهدف الى إدراك كنه الأسرار الربانية) وعناصر الفلسفة اليونانية ودين المفكرين المانيشي تركز هذا الايمان في عقيدة سرية تتلاءم مع الميل الوراثي عند الشرقيين للإنضواء في جمعيات سرية. وهذا الميل الشديد الانتشار في الشرق، استغل في عهود عديدة لأغراض سياسية من جانب مثيري الفتن الطامعين»[14].

وخلال قرن تقريباً ظلت العقيدة الاسماعيلية دينية بشكل أساسي. وبحسب هذه العقيدة فإن «الله لا أوصاف له وهو أسمى من كل مفهوم. لكنه وبإرادته ظهر تحت شكل العقل الكوني ـ وهو إله حقيقي بالنسبة الى الاسماعيليين ـ والذي من اهم صفاته المعرفة»[15].

وبعد قرن من تأسيسها وجدت طائفة الاسماعيلية «شكلها الأدبي في رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء والتي شكلت موسوعة فلسفية. وإن هؤلاء الإخوان، وكطائفة، ظهروا أولاً في العراق العام ٨٩٠ في منطقة واسط حيث كان قد قضي على تمرد الأرقاء لتوه»[16].

وعلى الصعيد السياسي: فإن الطائفة الاسماعيلية ولتحقيق اهدافها استخدمت عقائد الإسلام الدينية «معتمدة كالقرامطة ذوي القربى تفسير كلمات القرآن الكريم بشكل رمزي ولم تعترف إلا بمعناها الخفي أو الباطن ومن هنا جاء اسمها الآخر وهو الباطنية»[17]. وعلى الصعيد الفكري او العقائدي فسيكون لها دورها في تطور الفكر الإسلامي لا سيما «في التغليب المعطى للعقل».

13 Massé, *op. cit.*, p. 158, 159.
14 Brockelmann, *op. cit.*, p. 127.
15 Massé, *op. cit.*, p. 163.

16 Brockelmann, *op, cit.*, p. 127, 128.
17 Brockelmann, *op. cit.*, p. 139.

ب ـ حركة القرامطة

في حوالي العام ٨٩٠ قام رجل يدعى حمدان قرمط بتأسيس مكان إجتماع لأنصاره في منطقة واسط العراقية، مركز طائفة إخوان الصفاء الإسماعيلية، وسمى ذلك المكان «دار الهجرة». وإن قرمطاً الذي سيعطي إسمه إلى طائفة سياسية ـ دينية جديدة، سيعطي الدعوة الإسماعيلية دفعاً جديداً ويحوّل نشاط أنصاره نحو أهداف سياسية.

إن المطلعين على أسرار هذا الدين، والذين كانوا يعيشون اشتراكية أموال تامة، يعترفون بسلطة الإمام المتخفي وممثليه وإن كانت شخصية ذلك الإمام مجهولة منهم. وكان هؤلاء يلتزمون عن طريق القَسَم والعقود بالإطاعة التامة لهذه الفرقة ورؤسائها. وكان يطلق عادة على هؤلاء الرؤساء إسم «معلمي الصفاء». «وجمع حمدان قرمط العناصر العمالية والفلاحين في بلاد ما بين النهرين التي كانت قد تعرضت منذ فترة وجيزة لحرب الأرقاء وجعلهم ينضوون تحت راية الإيمان بالإمام المتخفي الذي سيحقق طموحاتهم بالمساواة وأطلق تنظيم رفاق، أو حركة أصحاب، يتضمن درجات يُرتب فيها المطلعون على أسرار العقيدة (هو الذي نجده ربما في أساس حركة الماسونية الغربية)»[18].

إن الحركة القرمطية التي ستتحول جزئياً إلى نوع من الشيوعية البدائية ستمتد الى جزيرة العرب. وحوالي العام ٩٠٠ أقام القرامطة مركز عملهم في البحرين عند أبواب العراق وجزيرة العرب. وبعدما أقلقوا العراق بهجماتهم المتكررة وشلوا التجارة وحركة الحجاج فإنهم استولوا على مكة العام ٩٣٠ وقتلوا الحجاج المجتمعين في المسجد، ودنسوا محيط الكعبة وسرقوا الحجر الأسود وحملوه معهم الى البحرين. وبعد ذلك بنحو سنتين هاجموا الكوفة أيضاً ونهبوها.

وحول القرامطة كتب المستشرق لويس ماسينيون قائلاً: «إننا نعني بكلمة قرامطة بالمعنى الشامل تلك الحركة الواسعة المطالبة بالإصلاح والعدالة الاجتماعيين والتي هزّت العالم الإسلامي بأسره في القرن التاسع من عهدنا لتعود وتسقط العام ٩١٠ عندما نودي بمؤسس السلالة الفاطمية في المهدية»[19].

18 Massé, *op. cit.*, p. 157.

19 Cité par G. Wiet, *op. cit.*, p. 120.

ج ـ الفاطمية

وفي حين كان حمدان قرمط حوالي العام ٨٩٠ يبشر بعقيدته في بلاد ما بين النهرين كان رجل آخر يدعى محمداً، ويزعم أنه من سلالة علي وفاطمة، يجند اتباعاً للمهدي الذي سيظهر من عائلته. وكان ذلك الرجل المقيم في السلمية قرب حلب يعظ بالعقيدة الشيعية بحسب الاسماعيلية واكتسب الى جانب قضيته رجلاً يمنياً من صنعاء يدعى أبا عبدالله. وبعدما نجح أبو عبدالله هذا في استمالة برابرة تابعين لقبيلة من المغرب العربي لدى قيامهم بالحج في مكة في أثناء حجه هو أيضاً، فإنه تبعها الى شمال أفريقيا حيث قام بتجنيد جيش من أبنائها وهاجم بواسطته الأغالبة الذين كانوا يحكمون الشمال الأفريقي فهزمهم وإستولى على الحكم في البلاد (٩٠٩).

وفي العام ٩١٠ وصل عبيدالله ابن محمد (مؤسس الحركة الفاطمية) وخلفه، الذي يزعم تحدره من سلالة علي وفاطمة ورئيس الفرقة الاسماعيلية في السلمية، الى افريقيا حيث أعلن نفسه على أنه المهدي. وتيمناً بذكرى أبيه فقد استقبله ابو عبدالله بالترحاب ورفعه الى سدة العرش. وأقام عبيدالله مقره في المهدية، من إسم المهدي، ورفض الاعتراف، شأنه شأن أسلافه، بسيادة خلفاء بغداد الإسمية. وبصفته فاطمياً فقد زعم أنه الوريث الشرعي للخلافة الاسلام. وبعد ذلك بسبعين عاماً أرسى الفاطميون، ورثة عبيدالله وخلفاؤه، لمدة قرنين من الزمن سلالتهم وسيادتهم وعقيدتهم الدينية في مصر حيث أسسوا الخلافة الفاطمية في القاهرة.

«وبإختصار، يبدو ان الحركة القرمطية وضعت عقيدة الإمام المتخفي في خدمة ثورة اجتماعية، وقد رفض الفاطميون بدورهم تلك الاشتراكية واستخدموا الدعاية القرمطية وعقيدة الإمام المتخفي لتحقيق اهدافهم نحو السيادة السياسية»[٢٠]. وبعد انتصار التيوقراطية (الحكم الالهي) الفاطمية في أفريقيا راحت الاشتراكية القرمطية تتراجع.

د ـ الدرزية

في حين كان الإمام المتخفي أو المهدي بالنسبة الى الاسماعيليين والقرامطة والفاطميين نوعاً من نبي ملهم أو يعمل بتوجيه من الله، كان

20 Massé, *op. cit.*, p. 158.

الـدروز والنصيريـون، أكثر تـطرفاً منهم. فـالدروز يجعلون من الخليفـة الحـاكم والنصيرية تجعل من الخليفة علي «تجسيداً لله نفسه».

ففي أيام حكم الحاكم بأمره تعالى، وهو ثالث خلفاء مصر الفاطميين (٩٩٦ ـ ١٠٢٠) والـذي طالب بضـرورة تقـديم العبـادة الالهيـة اليـه، نشـأت عقيدة متطرفة، بتشجيع من الحاكم بأمره، ترى في الخليفـة ذي المحتد الشـرعي تجسداً للألوهة. إن الحاكم الذي اختفى نتيجة مؤامرة دبرها كبـراء بلاطـه العام ١٠٢١ قد يكون قتل اثناء قيامه بنزهة عـلى صهوة جـواده في ضواحي القـاهرة. وبعـد إختفـائـه استعـاد خلفـاء القـاهـرة الفـاطميـون لقبهم السـابق أي إمـام الاسمـاعيليـين (١٠٣٥) وأعيـدت العقيـدة الاسمـاعيليـة كـدين رسمي وبقيت سائدة في مصر حتى إعادة العقيدة السنية المستقيمـة الرأي العـام ١١٧١ على يـد صلاح الدين.

وبعـد وفاة الحـاكم قام أحـد مقربيـه، وهو محمـد بن اسماعيـل الـدَرزي بمغادرة مصر الى لبنـان حيث أسس طائفـة جديـدة ستحمل إسمـه: هي طائفـة الـدروز. إن هـذه العقيـدة التي انتشـرت أيضـاً في حـوران (جبـل الـدروز في سورية) تـطغى فيها عبـادة الحاكم بـأمره الالهي «وسـواها من المعتقـدات الالهية السـرية كـإيمانهم بتنـاسخ الأرواح والتحفظ الضمني (حيث يعـطي المتكلم جملته معنى غـير ما يمكن ان يفهمـه السـامـع وذلـك لتضليله) لـذا انحصـرت اسـرار الدين هذا بفئة العقلاء.

هـ ـ النصيرية

النصيريون هم أتباع رجل يدعى إبن نصير، وهـو الذي أسس في القـرن العاشر فرقة دينية علوية. وإذا كان الدروز يـرون في الخليفة الحـاكم تجسداً لله، فإن طائفـة النصيريـة المعاصـرة لهم، حالياً العلوية ومقـر أتباعهـا على السـاحل السوري الشمالي (منطقة الـلاذقية) ـ تؤلـه الخليفة علياً. «فهو ظـاهريـاً إمامهم ولكنـه في قرارة أنفسهم إلههم». وقـد رفض الإسلام القـويم الـرأي النصيـريـة التي هي «حركة توفيقية غامضة تجمع بين الـوثنية السـورية ـ الفينيقيـة والإسلام والمسيحية».

ويؤمن النصيـريون أو العلويـون «بثالـوث مؤلف من علي ومحمـد وسلمان (وحيث أن محمداً ليس إلا فيضاً لعلي تماماً كسلمان الذي سبق علياً)... فإننا نجد في ثالوث النصيرية هذا، أحـد أنواع الثـالوث الـوثنية في سـورية القـديمة.

وفضلاً عن ذلك فالعلويون يتلقون أوصافاً ميتولوجية: وبموجبها فعلي هو سيد الرعد ويستعاض بدم الحسين لتفسير إحمرار شفق المغيب عن دم أدونيس الذي صرعه خنزير بري. كما أننا من الناحية الطقسية نجد عند النصيرية مزيجاً غريباً من الأعياد الشيعية والأعياد المسيحية. وتحاط أضرحة أوليائهم بأشجار هي بدورها موضع عبادة وتقوم على مرتفعات البلاد»[21] (وهو تقليد متوارث من العبادات الفينيقية).

و ـ النزارية أو الفدائية أو تنظيم الحشاشين

وفي عهد الخليفة الفاطمي المنصور (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) وهو حفيد الحاكم قام رجل إسماعيلي من أصل فارسي يدعى حسن إبن الصبّاح، استمالته عقيدة فاطمي مصر وإنحاز الى حزب نزار ابن الخليفة، ومن هنا جاء إسم النزاريين الذي حمله أيضاً مؤيدوه. وفي العام ١٠٩٠ غادر حسن الصبّاح مصر قاصداً منطقة حلب (سورية) ثم ظهر في فارس حيث تابع دعوته بصفته «مبعوث نزار». وبمساعدة بعض أنصاره المتعصبين إستولى على قلعة ألاموت الجبلية وتعني عش النسر، شمال قزوين، وجعلها مقره العام.

«وقد نظم فرقته في مرتبات متعددة أسوة بالدعوة الفاطمية. وفي حين كانت مجموعة المطلعين على أسرار العقيدة، وهي محدودة العدد، تنادي بإباحية لا حدود لها إن لجهة الأخلاق او الدين، فإن أدوات نشر الدعوة كانت تدرب على أشد أنواع التعصب. من ذلك مثلاً اغتيال أعداء الدين الحقيقي الذين يحددهم رئيسهم، وكان يصوّر لهم هذا القتل على أنّه عمل تقوى يلقى إستحساناً من الله ويؤمن لمن يقوم به مسرات الفردوس. وهؤلاء الحشاشون (السفاحون) كانوا يطلقون على أنفسهم إسم «الفدائيين» أي الذين يضحون بأنفسهم أو «الحشاشين» أي الذين يبلغون حالة الانتشاء الحماسي عن طريق تعاطي الحشيش وهو الجزء المخدر من القنب الهندي. وقد كان إستخدام المنبهات شائعاً جداً في الأوساط الصوفية الروحانية، وكانت القهوة إحداها وقد كانت منتشرة كثيراً في جنوب الجزيرة العربية في القرن السادس عشر»[22]. «وقد شهد الإسلام مثل هذه الاغتيالات المنظمة: فمنذ القرن الثامن قام الخناقون بممارسة تفسير رمزي للقرآن الكريم وعمدوا الى قتل من كان يخالفهم الرأي»[23].

21 Massé, *op. cit., p. 160.*

22 Brockelmann, op. cit., p. 156.

23 Massé, *op. cit.*, p. 161.

إن الإضطرابات التي تلت وصول الصليبيين أتاحت لحسن الصبّاح أن يؤسس إمارة مستقلة حول قلعة ألاموت إستمرت قائمة عن طريق الإرهاب ردحاً يفوق القرن ونصف القرن (١٠٩٠ ـ ١٢٥٦). وبرغم إعلان حسن الصباح وقائديه الأولين اللذين خلفاه عن تبعيتهم إلى إمام القاهرة الفاطمي إلا انهم كانوا يمارسون على أتباعهم سلطة مطلقة تستبيح أرواحهم وأجسادهم وكان على هؤلاء الأتباع أن ينقادوا الى أوامرهم إنقياداً أعمى لا مناقشة فيه وبخاصة في مجال تلقين القرآن الكريم وهو حق محصور بقائد تلك الفرقة الأعلى. وقد ثار الخلف الثالث لحسن على الوصاية الدينية والإسمية للخليفة الفاطمي وغدا الحبر الأعظم للإسماعيليين. وكان يمتلك في ذلك العصر الى جانب قصور فارس قصوراً أخرى في سورية كان يحتلها أنصاره منذ العام ١١٢٤.

وحوالي العام ١١٥٠ قام رشيد الدين سنان وهو مساعد قائد الاموت الأعلى في سورية بالتمرد على قائده ونفذ سياسة إغتيالات سرية. وسرعان ما تحول رشيد الدين سنان، الذي كان يقيم في قلعة مزياد في جبل العلويين (منطقة اللاذقية) في وقت قصير، الى قوة مرهوبة وأكره الصليبيين وصلاح الدين على أن يحسبوا له حساباً. وقد أطلق المؤرخون الغربيون في ذلك العصر على هذا القائد الأعلى للحشاشين في سورية لقب «شيخ الجبل».

«إن الغزو المغولي العام ١٢٥٦ تسبب في تدمير قوة الإسماعيليين في فارس. وأما إسماعيليو سورية، الذين أخضعهم بعدها ببضع سنوات سلاطين مصر المماليك، فقد استمروا يعيشون في الخفاء: فالمتحدرون منهم ما يزالون يعيشون حول تلك القلاع الخربة. كما أننا ما نزال نجد مجموعات صغيرة من أولئك الاسماعيليين في كل من ايران وآسيا الوسطى وأفغانستان وعمان وزنزيبار ولكنهم في الهند ما يزالون يحتفظون بقوتهم الاقتصادية إن لم تكن السياسية حيث يشكلون فرقة الخوجا ورئيسهم الحالي هو السيد محمد شاه إبن آغا علي، المعروف أكثر باسم آغا خان وهو الإمام السابع والأربعون (ومن وجهة النظر الاسماعيلية)[٢٤]. وأما إبنه كريم آغا خان وخلفه فهو اليوم رئيس تلك الطائفة.

24 Massé, *op. cit.*, p. 163.

٢ ـ الفرق العقلانية والأخويات الصوفية

أ ـ الفرق العقلانية: القدرية، الجبرية والمعتزلة

رأينا أن مسألة الخيار البشري الحر، والتي هي في أساس المذهب العقلاني الحر، هي فكرة غامضة جداً بل هي متناقضة في القرآن الكريم. ومنذ نهاية القرن الأول للهجرة كانت القدرية المطلقة التي تتعارض مع مفهوم العدالة الالهية تناقش من جانب علماء الدين المسلمين الذين كانوا على صلة بالمراكز المسيحية في سورية. ومن تلك المناقشات حول القدر خرجت عقيدتان متضادتان هما: عقيدة القدريين الذين يقيدون فعل القدر بالاعتراف للانسان بالحرية في أعماله، وعقيدة الجبريين الذين يخضعون الأعمال الانسانية لجبر الهي.

إن الأمويين الذين كانوا يستخدمون الجبرية للحفاظ على سيادتهم «المقررة سلفاً في قرارات الله الخالدة» كانوا يحاربون القدرية. وفي عهد عباسيي بغداد فإن ترجمة الأعمال القديمة ونشر الفلسفة الأغريقية «زودا العرب الذين كانوا وجدانيين بطبعهم أكثر مما كانوا ناقدين بنماذج في المجادلة والمحاجة وسوف يعلمهم الفرس، وهم أكثر براعة منهم، كيف يفيدون منها... فتنتج عن نهج المحاجة هذا الذي طبق على علم الدين فلسفة دينية حقيقية أطلق عليها إسم علم الكلام... وأقدم ممثلين لذلك العلم الكلامي هم المعتزلة»[٢٥].

وبالنسبة الى المعتزلة (أي الذين يعزلون أنفسهم) فالعقل «هو معيار المعرفة الدينية... وكانت عقيدتهم تتضمن ثلاث أفكار رئيسية هي:
١ ـ الإنسان هو حرّ.
٢ ـ بوسعنا ان نميز في الله الصفات الجوهرية والصفات المادية.
٣ ـ القرآن الكريم ليس خالداً أي هو محدث»[٢٦].

إن فكرة كون القرآن الكريم «محدثاً» وليس خالداً إعتبرت هرطقة وحاربها ممثلو التقليد القويم الرأي الذين كانوا يعتبرون أن كلام الله (أي القرآن الكريم) هو خالد خلود الله نفسه. إن الخليفة العباسي المأمون (٨١٣

25 Massé, *op. cit.*, p. 167-168.
26 Massé, *op. cit.*, p. 168-169.

ـ ٨٣٣)، الـذي تبنى عقيدة المعتـزلة، فـرضها العـام ٨٢٧ كعقيدة رسميـة وأمر بملاحقة منكريها.

وبرغم أن الخليفة المتـوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) إرتـد ضد حـركة المعتـزلة فـإن المنازعات بين هؤلاء المعتزلة وأخصامهم المستقيمي الـرأي التقليديـين ظلت تمزق الإسـلام زمناً طـويلاً. وفي القـرن العاشـر إعتقد الأشعـري، وهو من المعتـزلـة القدامى، بأنه وجد عقيدة تسويـة ترفض الافـراط في عقلانيـة المعتزلـة من جهة كـما ترفض الإفـراط في التمسك بـالشكليات التي يعتمـدها المستقيمـو الرأي من جهة اخرى. وهكـذا فالقـرآن الكريم بـالنسبة الى الأشعـري مثلاً هـو كلمة الله الخالدة ولكنه في حروفه وحبره ومادته هو من صنع الانسـان. ولكن الأشعرية، كسائر الحلول الوسيطة، لم ترضِ أحداً.

ب ـ الصوفية والأخويات الروحانية

«في حين يعتبر العقلانيون أنه يمكن بلوغ الحقيقة المـطلقة عن طـريق قوة العقل وحده يؤكد الصوفيون أنه لا يمكن الـوصول إليهـا إلا بقوة الحـدس. وقد لعب الغـزالي دوره التوفيقي في هـذا المجال أسـوة بدور الاشعـري في مجال علم الكلام»[٢٧].

إن الصـوفيين المسلمـين الاوائل كـانوا زهّـاداً وكانت ميـولهم وممـارسـاتهم الناجمة عن تـأثيرات مسيحيـة محلية تجـد تشجيعاً لهـا في بعض الآيات القـرآنية. ثم راح هؤلاء الصوفيون شيئاً فشيئاً يستبدلون الصلوات الخمس المفروضة بإبتهالات صـوفية ويعتمـدون لباس الصـوف الأبيض ومن هنا جـاءت تسميتهم بالصوفيين وحركتهم بالصوفية.

وقد أقيمت مراكزهم الرئيسية في العراق: في الكـوفة في القـرن السابـع، وفي البصـرة في القرن الثـامن وأخيراً في بغـداد التي غدت في النصف الثـاني من القرن التاسع مركز حركتهم. وكـان الصوفيـون يسعون من خـلال الوحـدة إلى وسيلة للقـاء الكائن الاسمى أو واجب الـوجود.. وعـوض أن يتشبهوا بـالله أو يفهموه كان جل مرادهم «أن يذوبوا فيه».

«لم يعد هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الصوفية الاسلامية ذات أصول غـريبـة، بـل يبـدو أنها ولـدت تلقـائيـاً عـلى أرض الإسـلام، بـرغم إستشعـار

27 Massé, *op. cit., p. 171.*

التأثيرات المسيحية والإيرانية وحتى الهندوسية (فيدانتا) فيها. لكن ومن بين تلك التأثيرات نستطيع إعتبار تأثير الفلسفة الهللينيستية كبيراً على الصوفيين اللاحقين وقد أغنت مصطلحاتهم.

وهكذا يبدو أن هؤلاء الصوفيين لم يعد لديهم شيء يمت إلى الإسلام. لكن ومثلما كان أكثر الشيعة مغالاة قد ظلوا على إتصال بالإسلام عن طريق تفسيرهم الرمزي للقرآن الكريم فإن الصوفيين يفسرون على مزاجهم سور الكتاب الكريم. كما أن لديهم نقطة أخرى يلتقون فيها مع الشيعة (التي تنبذهم) هي تكريمهم لعلي الذي يعتبرونه رئيس التعاليم الصوفية»[٢٨].

ومنذ القرن الثامن تجمع الصوفيون في أديرة للرجال والنساء في العراق وسورية ومصر، حيث كان المبتدئون يتلقون التعليم على يد مرشد روحي وحيث أخذت تنتظم بدءاً من القرن الثاني عشر مختلف أخويات الصوفيين الدينية ومنها: القدرية، الرفاعية، المولوية (الدراويش الدوارون) إلخ... وإن نشاط هذه الأخويات سيكون دينياً وسياسياً في آن معاً. وإن بركة الرئيس الأعلى للأخوية والتي يكرم مؤسسها دائماً كقديس تمنحه سلطة مطلقة على إخوانه. إن هذه العبادة للقديسين ولأضرحتهم وهي غريبة عن الاسلام القويم الرأي تحل أحياناً بالنسبة الى عامة الشعب محل عبادة الله، الذي يعتبر على أنه بعيد جداً عنهم. «ذلك ان عبادة القديسين المحليين، والتي تزيل أحياناً واجب الحج الى مكة المكرمة، تغطي غالباً، في الدين الاسلامي كما في غيره، عبادة سابقة. لقد كان المتشددون يأخذون على الصوفية تغليبها التأمل على الصلاة وإهمال الممارسات الدينية السنية...

جرت محاولات توفيقية منها المحاولة التي قام بها الغزالي المتوفى العام (١١١١) والذي أحيا بحق الإسلام محققاً في أعماله تآلف العناصر التقليدية والعقلانية والصوفية. فوق ذلك فإن البرهان على تأثيره العميق والسريع الذي يمكن تشبيهه بتأثير القديس توما الأكويني هو زوال نفوذ فلسفة أرسطو في الشرق. عندها هاجرت الفلسفة العربية الى إسبانيا حيث تألقت تألقاً باهراً خلال القرن الثاني عشر...

ففي القرن الثالث عشر إذن إستنفدت الحركات الفكرية المذهبية قوة إندفاعها وهدأت الصراعات بين إستقامة الرأي الدينية والليبيرالية (المتساهلة)

28 Massé, op. cit., p. 173, 174.

والفلسفة والصوفية. ومنذ ذلك التاريخ سيغدو التنافس بين السنة والشيعة سياسياً أكثر منه دينياً. ولكن لاحقاً، كما سنرى، فإن حركتين إضافيتين ستبرزان إحداهما في القرن الثامن عشر (الوهابية) والثانية في القرن التاسع عشر (البابية، نسبة الى مؤسسها الباب) وهما حركتان تتميزان بالميلين الأساسيين في المذاهب وهما: إعادة الاسلام الى بساطته الأولية وإضافة عناصر جديدة اليه[٢٩].

٣ ـ الخاتمة

إن نشأة الفرق الدينية والعقائد المشّاقة في الإسلام وتطورها في عهد حكم الخلفاء، وعلى غرار سابقاتها المسيحية تحت حكم أباطرة بيزنطية، تمثلان عموماً، كما قلنا، معارضات عرقية أو قومية وحركات إستقلالية ضد سلطة الخليفة المركزية حامي العقيدة الرسمية أو القويمة الرأي. وهذه العقائد الهرطقية أو المشاقة، تمثل على الأخص المطامح الإقليمية والميول الإنفصالية لدى المجموعات الجغرافية التي إعتمدتها. وإن أتباعها كانوا يرمون في الواقع إلى تدمير وحدة العالم الشرقي السياسية وإلى تجزئة هذا العالم المجموع تحت إدارة الخلفاء العليا.

فحركة الخوارج التي ولدت في العراق هاجرت بعدها إلى جزيرة العرب والمغرب الأفريقي. إن هذه الحركة التي إستبقت الوهابية الحالية في المملكة العربية السعودية بذلت قصارى جهدها لتحرير بلدان اليمن وشمال أفريقيا من وصاية دمشق السياسية. وسوف تخلفها في القيام بهذه المهمة الحركة الزيدية في اليمن. وحتى اليوم فإن إمام مسقط (عمان) هو عبادي (خوارجي) وإمام اليمن زيدي.

إن الشيعة الأكثر تلاؤماً مع الوسط العراقي الإيراني وريث التقاليد البابلية والساسانية التي تجعل من الملك كائناً إلهياً، إنما تجسد التطلعات القومية التي يصبو إليها العراق وإيران وتدعم ميولها الإنفصالية حيال دمشق. وبعد النصر العراقي الإيراني على عرب سورية وإقامة خلافة العباسيين في بغداد (٧٥٠ ـ ١٢٠٠) فإن مطالبة العراق بالإنضمام إلى أبناء دينه ستهدأ وإن العقيدة السنية التي أعلنها خلفاء بغداد عقيدة رسمية لم تقلق الشيعة العراقيين.

29 Massé, *op. cit.*, p. 176, 178.

وفي المقابل فإن قيام خلافة بغداد السنية سيثير في مقاطعتي مصر وسورية المتوسطيتين حركات سياسية ـ دينية موجهة ضد سيادة الأمبراطورية المابينهرية الجديدة. وإن المصريين، ورثة التقاليد الفرعونية التي تجعل من الملك إلهاً، سيتخلون بدورهم عن العقيدة السنية المعتمدة من قبل بلاط بغداد وينضوون تحت لواء الشيعة الفاطمية المعتبرة على أنها هرطقة من قبل الإيمانية القويمة العباسية ويعلنون من ثم استقلالهم السياسي والديني عن بغداد تحت إدارة الخلفاء الفاطميين (٩٦٩ ـ ١١٤٧) المتحدرين من سلالة علي الإلهي وزوجته فاطمة. ومن أجل مساعدتهم على حركة التفكك هذه فإن أعضاء الفرق الإسماعيلية والقرمطية والدرزية والحشاشية سينصبون أنفسهم في سورية دعاة المشاقة التي تتلقى أوامرها من القاهرة فتقوض أسس هيمنة العراقيين ـ الإيرانيين السياسية.

وأخيراً عندما إستعادت مصر دورها كقوة أمبراطورية تحت حكم القائد السني صلاح الدين الأيوبي (١١٤٧ ـ ١١٩٨)، وحين سقط العراق من جديد في مرحلة من التردي والنسيان، فإن السنية القويمة الرأي إستعادت بكل بساطة مركزها الرسمي في وادي النيل.